بين القول والعمل

يلاحظ الانسان ظاهرة غريبة فى مصر يصعب تعليلها أو تفسيرها إلا باتهام قاس لطبيعة هذه الأمة لا يسهل على الوطنى قبوله أو تصديقه .

هذه الظاهرة هى شعور كل فرد فى مصر بالمناقص والعيوب الأساسية فى المجتمع والأداة الحكومية ، وشكواه منها ورايته عليها واقتراح الحلول لها ، ثم العجز بعد ذلك عن وضع هذه الاقتراحات موضع العمل والتنفيذ ممن يملكون العمل والتنفيذ !

ليس فى مصر عيب أساسى واحد إلا وهو معروف مكشوف تلهج به ألسنة الجميع حكاما ومحكومين ، وليس بها نقص إلا وعلاجه معروف كذلك متفق عليه أو مختلف ، ولكنه ليس متعذرا ولا مستحيلا ، أما العمل فهو المتعذر المستحيل .

كلنا نشكو من الفقر الأسود الكالح الذى يضغط اثنى عشر مليونا من المصريين ، ويحيل حياتهم ظلاما وعيشهم بؤسا ، ويردهم إلى حياة الديدان والحيوان ، بل إلى أشنع من حياة الديدان والحيوان ، فليس هناك اختلاف على تناقص الثروة العامة بازدياد عدد السكان ، وعلى وجوب إنماء الثروة بمشروعات طال درسها ونضج بحثها ، وليس هناك اختلاف كذلك على سوء توزيع الثروة ، وعدم تعادل الجهود والأجور بين الأفراد المختلفين والطوائف المختلفة ، سواء فى ذلك الموظفون والعمال وأصحاب العمل والملاك ، ووجوب العمل على حسن توزيع الثروات وعلى تعادل الجهد والجزاء .

أما التنفيذ فهو المتعذر المستحيل !

وكلنا نشكو من بطء الإجراءات الحكومية بطئا شديدا منقطع النظير مع اتفاق الحكام والمحكوم على هذه الشكوى وعلى وجوب العمل على إزالة أسبابها وإبداء اقتراحات معينة فى هذا الصدد لم يخرج واحد منها .

أما التنفيذ فمسألة أخرى منفصلة عن التفكير .

وكلنا يشكو سياسة الارتجال فى جميع الشؤون ، وبعض هؤلاء الشاكين يتسلمون زمام الحكم ثم يمضون عنه دون أن يفكروا فى وضع سياسة دائمة كالتى كانوا ينادون بها وهم أحرار من قيود الوظيفة .

فما العلة فى هذه الظاهرة العجيبة وما التفسير الصحيح ؟

هل حقيقة أننا شعب قد نفدت طاقته العصبية ، ولم يبق له إلا طاقة القول والجعجعة والخيال المريض ؟

هل صحيح أننا أمة تخلفت عن الحياة فهي تعيش في الأجيال الغابرة وفي بطون التاريخ، ولا تعيش في الحاضر الواقع أو تخطو في ركب الحياة الحقيقية ؟

هل نحن أشباح الماضي تراءى وتخايل ولكنها لا تلمس ولا تجسم ؟ هذا هو التفسير القريب ، ولكنه توهم مرير تتبرأ منه فطرة الوطني المخلص ويخفل منه كل إحساس سليم .

فما العلة إذن وما التفسير ؟

يخيل إلي أن السبب الأول هو طول العهد على المصريين وهم بعيدون عن الاشتراك في حكم أنفسهم وتصريف شؤونهم ، حتى فقدوا أو كادوا كل مقدرة على التنفيذ واستعاضوا عن ذلك بالتخيلات والآمال التي تحيا في ضمائرهم المبهمة ولكنها تنفر من النور والوضوح .

لقد جيل بين المصريين وبين أنفسهم منذ أكثر من ألفي سنة وأخذ غيرهم من الفاتحين يفكرلهم وينفذ ، أما هم فيفكرون ولا ينفذون ، على عهود الرومان والعرب والمماليك والأتراك والفرنسيين والانجليز . فلما خلي بينهم وبين التنفيذ وجدوا آخر عهدهم به قبل نيف وعشرين قرنا ، كانوا قد نسوا كيف يجمعون بين التفكير والتحقيق ، كانوا قد أصبحوا أشلاء عاجزين عن الحركة والعمل ، وهذا هو التفسير الصحيح .

وكما أن الذي يمنع من الحركة تتطلب أطرافه وتشل شللا وقتيا ويحتاج الى الزمن في المرانة على الحركة من جديد ، فكذلك المصريون في حاجة الى المرانة والتدريب حتى يستردوا مقدرتهم الكافية التي صنعت الأعاجيب في كثير من العهود .

ليس بنا إذن أن نسيء الظن بالطبيعة المصرية في جوهرها ولا أن نيأس من نهوضها بما يتطلب منها العهد الجديد ، ولكن علينا أن نجتهد في المرانة والتدريب ولا نكتفي بالشكوى والعويل .

علينا أن نعنى في أطفالنا ، ولا سيما في دور المدرسة — غريزة العمل وأن نربط دائما بين عمليتي التفكير والتنفيذ في محيطهم الضيق ، وأن نجتهد في تقريب المدرسة من الحياة الواقعة كما هو متبع في مدارس ديوي وطريقة المشروع — فنحن أحوج أمم الأرض الى تقوية الصلة بين التفكير والتحقيق .

وعلى الزعماء ومن بيدهم مقاليد الحكم أن يقتصدوا في القول والدعاية وأن يحددوا مراحل العمل ويجعلوها صغيرة قصيرة في حدود المستطاع حتى تظهر نتائجها العملية بسرعة ويراها الشعب حقائق ماثلة فيؤمن بنفسه ويعتقد مقدرته على العمل لا على مجرد الكلام .

والهيئات النيابية المحلية خطوة كبيرة في تعويد الشعب على التفكير والتنفيذ في هذه الحدود الواسعة الكبيرة . كما أن كل خطوة لإلغاء المركزية هي مرانة طبيعية على التنفيذ وتدريب على العمل له ثمراته الطيبة .

إننا نجتاز مرحلة اختبار دقيقة فعلينا أن ننجح ونبعث من أيدينا الزمام ونرتد الى حياة القاصر بعد طول الجهد والنضال .